لارا الحاج

الجامعة اللبنانية الامريكية

تروي لنا هذه القصة عن حديقة منفية في آخر شارع رأس بيروت المعروفة بإسم "حديقة رأس بيروت". حيث كان بالعادة أهالي بيروت يقصدونها كونها تتميز بطبيعتها الخلابة ومساحاتها الواسعة وأجوائها العائلية. أما بالنسبة للعنصر الذي سيُحيّي لنا واقعيات هذه الأقصوصة، فهو "الفتاة البيروتية التي واجهت مشكلات منذ بدء الحرب الأهلية اللبنانية، والتي كانت السبب بتدمير حديقتنا المنفية المجروحة.

اسمي جوليا الداعوق ، وقد يأتي اسمي بمعنى "قوة الشخصية والصلابة". سيدة بيروتية من شارع رأس بيروت، أنتمي إلى عائلة تهتم بالعلم والثقافة وتشجع الانتماء للوطن قلباً وقالباً. أبي كان طبيباً يعمل في مستشفى جامعة الامريكية في بيروت وأمي كانت معلمة رياضيات. حصدنا أنا وإخوتي الثلاثة (زياد وكرم وكريم) من بطن أمي لنستيقظ على حياة تعلمنا فيها أحسن تعليم وحصلنا على أهم الوظائف. أعود بذاكرتي إلى يوم أحد وأنا أسمع صوت أبي الحنون وهو يصرخ لأمي "يا حبيبتي، جهزي حالك والأولاد كرمال نروح على الحديقة ليلعبوا مع ولاد الجيران". وبالفعل نذهب بكل حماس إلى حديقة رأس بيروت المجاورة لمنزلنا الجميل. كانت هذه أيام البراءة والهمم، فكنا نضحك ونلعب ونستمتع مع الجميع، شريل وعمر كنا يجهزان الارجوحة، ورامي وجورج وأحمد كانوا يندهون للفتيات ليلعبوا مع الاولاد. كنا جيلاً بريئاً لا يعرف عن الحياة سوى القليل ولا يهمنا من الحياة سوى اللعب والطمأنينة. إلى أن أتت تلك الكارثة التي قلبت الموازين رأسا على عقب. لحظة بدء الحرب الاهلية اللبنانية كنت في سن العاشرة، هناك تفاصيل يصعب علي أن أتذكرها ولكنني أتذكر تماما أيام التهجير من بيت إلى آخر، وأتذكر أصوات القنابل والانفجارات. ولكن أكثر ما كان يقلقني ويرعبني وكنت دائماً أسأل والدتي عنه "ماما، هل سنعود إلى بيتنا القديم وللعب بالحديقة المجاورة له؟" وكان جواب أمي المعتاد لسؤالي المتكرر "إن شاء الله". فأشعر أني فقدت الأمل بالعودة إلى منزلنا وحديقتنا، لكن نطفة أمل بقيت مشتعلة متعلقة برجوعي الطفولي البسيط. في ذلك اليوم المشؤوم، دوى صوت القذائف في وسط الحديقة ليجعل من بيتنا أرجوحة تخيف الاولاد لا تفرحهم، فتنادي أمي "إهدئوا يا أولادي ولا بتخافوا أنا معكم"، وأتذكر كلمات أبي وهو يقول لنا "أنا ذاهب بسرعة إلى المشفى". وبعد ساعات من وقوع الانفجار في وسط الحديقة، ذهبت إلى نافذة المطبخ والتي كانت تطل على حديقة رأس بيروت وها رأيتها مدمرة، منكوبة، مسودة وشاحبة والنيران تلتهم ما تبقى منها، أتذكر تلك اللحظة بتفاصيلها، بكيت بحرقة شديدة لدرجة أن عيوني بدأت تحرقني من شدة البكاء.

غيرت شرارة الحرب معالم بيروتي وحديقتي التي محت معها قهقهاتنا البريئة وأحلامنا الكبيرة، وشردتنا أنا ورفاقي لنصبح في مختلف بقاع الأرض، والبعض الآخر بالفعل أصبح تحت الأرض. تهجرنا بعدما فجرت الحديقة المجاورة إلى منطقة الجناح، كانت منطقة هادئة نسبياً وأتذكر أن بيتنا كان يطل على البحر. وكنت في كل صباح أشرب القهوة مع أمي وأبي على التراس، وكان أهلي يحدثوني دائماً عن طفولتهما وعن بيتنا القديم وعن أولى أيامهم معاً بعد الزواج. حيث تعودنا بعض الشيء، بدأنا ننزل أنا وإخوتي لنلتقي بجيراننا الجدد في منطقة. وفي يوم من الأيام، صادف أخي كرم بشاب لطيف، فسلما بحرارة على بعضهما، ليبدوا لي أنهما يعرفان بعضهما منذ سنين وعندما عندنا إلى المنزل في المساء سألته:" كرم، من هو ذلك الشاب الذي سلمت عليه اليوم؟ يبدو لي أنكما تعرفان بعضكما البعض من سنين؟" فأجابني:" هذا علي، تعرفت عليه يوم الأحد في حديقة رأس بيروت، إنه شاب طيب وطموح ووطني وموهوب يحب الكتابة والشعر ويعشق شوارع بيروت". فوقفت متعجبة وقلت:" يا لها من دنيا صغيرة" فأجابني كرم:" صدفة كتير حلوة إنو ارجع والتقي فيه بعدما شردتنا الحرب وفرقتنا". وفي اليوم التالي، كنا عند الساعة الرابعة بعد الظهر في الشارع، فالتقيا علي وأخي مجدداً،فعرفني كرم على علي وجلسنا قرب شاطئ البحر، فتحدثنا عن الحديقة وأيامها الجميلة لدرجة نسينا نفسنا من شدة الضحك. ومن حديث إلى آخر، سألني علي عن هواياتي المفضلة، فأجبته:" أحب الكتابة والرسم والبيانو" رد فرحاً:" شكلك كثير حساسة وبنت موهوبة". فإحمر وجهي من الخجل وقلت له:" شكراً لك، هذا من ذوقك". وفجأةً، قدم لي عرضاً مشوقاً قائلا:" لماذا نؤلّف كتاباً معاً عن بيروت ونسميه "بيروت بعيون عشاقها". فأجبته:" يا لها من فكرة رائعة، وإنه لشرف كبير أن أألف كتاباً مع حضرتك". وبالفعل بدنا بتأليف الكتاب، كان كتاباً رائعاً، وكان الكتاب الذي باشرنا بكتابته مؤلف من أربعة أجزاء، أول جزء من الكتاب كان عن لبنان وكان مليئ بالغزل عن جماله وطبيعته الخلابة، وكوننا أنا وعلي نحب كتابة الاشعار، فقد ألفنا قصيدة عن لبنان وقررنا أن نضعها في نهاية الجزء الاول لنختم بها جزء لبنان وتقول القصيدة:

يا شعب لبنان العظيم

لا بد للبنان أن يستقيم

وأن يعود الأمل مع هب النسيم

واعلموا أن هناك يوم لكل ظالم

وما تهايته إلا الجحيم

فهناك ربٌ رحيم وعليم

وهو أعلم بمشاعر اليتيم

فعلينا أن نقوي من عزمتنا

وأن نرفض التقسيم

وعلينا أن نصّر على التعليم

لكي نبني وطناً

ونؤمن فيه العيش الكريم

فحلموا بالعدل والمساواة

واحلموا بالنعيم

لكي نعيد مجد لبنان القديم

يا شعب لبنان العظيم

أما عن باقي الاجزاء، فكانت جميعها عن بيروت، فالجزء الثاني كان يتمحور حول منطقة البيال والجزء الثالث عن شارع الحمرا ، أما بالنسبة إلى الجزء الرابع والأخير، فكان عن شارع رأس بيروت وتحديداً حديقة رأس بيروت. كتبنا ضمن هذا الجزء عن طفولتنا التي عايشتنا بحديقة رأس بيروت وعن الرفاق الذين شاركونا اللعب والمشاعر البريئة وأصوات الصراخ التي كانت تعم المكان، كنا حريصين على خاتمة للكتاب تعني لنا الكثير. انتهينا من تأليف الكتاب، وذهبنا به إلى مكتبة أنطوان في شارع الحمرا، وقررنا أن ننشره. وفي تاريخ 12 كانون الثاني من العام 1980، نشر أول كتاب لنا وهو "بيروت بعيون عشاقها"، وقد نال كتابنا اعجاب من الجميع وانتشر صداه في لبنان والعالم العربي. حيث حضر توقيعه الكثير من الناس الذين لا أعرفهم، ولكن ما جعل قلبي مسروراً وأدخل فرح الحديقة مجدداً عليه هو حضور الرفاق القدامى الذين علموا بأمر الكتاب وشاركونا فرحنا بعد سنوات.

وبعد مرور شهر على اصدار كتابنا، وقع انفجار في بيروت دوى صوته في أرجاء المدينة. رعب، ذعر، خوف، وارتباك عشنا هذه المشاعر باللحظات الاولى، حيث تهيئ لنا بقدوم ساعة الموت. وضعي كان مختلف قليلاً لأنني كنت في غيبوبة سببها سقوط سقف غرفتي ما تسبب لوالدتي "حالة انهيار"، لتظن أني فارقت الحياة. ركض زياد مسرعاً ليتصل بالدفاع المدني والصليب الاحمر، إلا أن بسبب ضغط الاتصالات واعلان حالات الطوارئ لم يجيب الدفاع المدني، ولكنه تمكن من الاتصال بالصليب الاحمر،الذي أتى مسرعاً وحاولوا انتشالي بمساعدة إخوتي. كان الوضع سيئاً، أمي في حالة انهيار وبكاء وصراخ، وإخوتي كانوا يحاولون امساك أنفسهم أمام أمي ولكن أخي الصغير كريم لم يستطع حتى أنه سأل أمي:" رح تعيش جوليا؟" ولكن أمي كانت بحالة انهيار ولم تتمالك نفسها فقامت بصفعه! انتقلت حينها إلى مستشفى جامعة الامريكية في بيروت، وهو مكان عمل أبي، وعندما أدخلوني، بدأت الممرضات بالقول "هيدي جوليا إبنة الدكتور داعوق" فسمع أبي أصواتهن، وأتى مسرعاً إلى غرفة الطوارئ، عندها أدخلني إلى العناية الفائقة عندما رأى أن رأسي كان ينزف بشدة. وبقيت في غرفة العناية لحوالي ثلاث شهور. كل هذا الوقت، استمر الانهيار مسيطراً على أمي، وحتى أبي الذي كان معروفاً بقوته وجبروته لم يتحمل كل هذا الضغط، أما عن إخوتي، فقلبي ينفرط كلما تذكرت كيف كان وضعهم، وخاصةً كريم، كنت أنا بمثابة أماً وصديقة بالنسبة له. وعلي، رفيق دربي في النجاح، والذي كنا قد كتبنا قبل شهور عن أحلامنا وتغنينا بجمال بيروت ولبنان، يقف اليوم على نافذة غرفة العناية يترقبني وينتظرني أن أصحوا وأعود للحياة من جديد. علي الذي أصبح جزءاً من عائلتنا، كان في كل يوم يهدئ قلب أمي، ويقوي أبي، وكان بالفعل سنداً وعوناً لإخوتي. أعترف أن هذا المصاب قد كسر ظهر أمي وأبي وإخوتي، لكن الانسان المؤمن مجرب في هذه الحياة. ولكن اختبار الصبر لم ينتهي هنا، فكان على أهلي وإخوتي وحتى علي أن

يعيشوا مع فكرة أنني فقدت ذاكرتي! أظن أن هذا الخبر كان بمثابة الضربة القاضية. تفاقم الوضع، وأهلي لم يبق لديهم طاقة على الاحتمال، تربطة أيديهم وأصبحت عيونهم معتادة على السهر، حتى أتى ذلك اليوم ،اليوم المرتقب، الذي استطعت فيه أن أفتح عيوني. علي كان واقفاً على شباك غرفتي وهو الذي بدأ بالصراخ "فاقت جوليا!"، عندها ركض أهلي وإخوتي إلى الغرفة ملهوفين، متفائلين، ومستبشرين أن الفرج قد أتى. أمسكت أمي بيد وأبي باليد الأخرى بالتأكيد لم أكن أتذكر شيئ وصرت أسأل "وين أنا؟" حتى سمعت صوت علي هاتفاً "جوليا بتتذكري شو صار؟ رح ذكرك هذه أمك وهذا أباك وهؤلاء هم إخوتك زياد، كرم، وكريم"، عندها ابتسمت لأنني رأيتهم جميعاً بجانبي، وشعرت أنني مشتاقة لهم! شعرت أنني لم أراهم منذ مدة طويلة. عندها ناديت أهلي "ماما، بابا"، والتفت أهلي متفاجئين أنني عرفتهم. ملامح وجه أمي لا أستطيع نسيانها، كانت تضحك بشدة والدموع تنذرف على خديها، أما أبي فكان يبكي كالطفل الذي استجابة دعوته. وبعد مرور 15 يوم، قال الطبيب لأهلي أنهم بإمكانهم أن يخرجوني. وبالفعل خرجت من المستشفى وعدت إلى بيت جدتي، لأن بيتنا أصبح غير صالح للسكن، بالتأكيد كنت أشعر بالتعب والوجع في بعض الاوقات، وحتى أنني عانيت في الفترة الاولى من ذاكرتي. فأنا لم أفقد الذاكرة بشكل كلي، إنما كانت لفترة مؤقتة.

لا أستطيع أن أخفي بأن علي لعب دوراً أساسياً بمساعدتي على استرجاع ذاكرتي. فكان يأتي إلى بيت جدتي كل يوم، يحضر معه الكعك الساخن ويتناول الفطور معنا، ومن ثم يأخذني إلى شوارع بيروت، وكان كتابنا الذي ألفناه معاً دائماً معه. كان يفتح على الجزء الثاني الذي فيه تكلمنا عن منطقة البيال، ويأخذني إلى هناك ويذكرني بالمنطقة وهو يقرأ لي جزء الثاني الذي تحدثنا به عن (البيال) حيث يجعلني أزور المكان وصولاً لشارع الحمرا الموجود في الجزء الثالث. لنصل على الجزء الرابع والأخير الذي تكلمنا به عن حديقة رأس بيروت. ذهبنا إلى الحديقة وهذه كانت المرة الأولى التي أذهب إليها منذ بدأ الحرب، صحيح أنها كانت مهدمة ومنكوبة إلا أنني إستطعت أن أتذكر طفولتي بتفاصيلها. تذكرت الألعاب التي كانا نلعبها، ورفاق التي كنت ألعب معم، حتى أنني تذكرت بيتنا القديم في شارع رأس بيروت، عندها فهمت وتيقنت أنه لا يمكن للحروب أن تخفي وتمحي أماكن إنطبعت في ذاكرتنا، وهذا بالفعل ينطبق على حديقة رأس بيروت، فهي لم تختفي ولن تختفي طالما هي موجودة في ذاكرتي.

في المساء، عدنا إلى البيت وبينما كنت جالسة بالقرب من التدفئة، شعرت بضرورة كتابة مشاعري على شكل قصيدة وكتبت:

ليس عندي لغة لكي أعبر عن غرابة الأمور

لكن قلبي على يقين أن كل هذه الغرابة ستزول

فلا بد من الصبر

فسوف يأتي يوم الحلول

ونفهم من حياكاتنا العبر

وآمل أن تكون قبل وصولنا الكبر

فلا أعلم ما يخبئ لنا مستقبلنا

لكنني متفائلة بالخبر

متفائلة أن الليل سينجلي

وأن شمس الصباح ستظهر على الحقول

وأن السلبية ستترك للمجهول

وأن أراضينا ستزداد قوة بعد صباق الخيول

وأن الأزهار ستتفتح وتفوح منها أجمل العطور

وسوف يتحقق حلم الأطفال ويبنون لأنفسهم أجمل قصور

ليست القصور الرملية، بل تلك المصنوعة من صخور

وسوف ينتهي الظلم والفجور

وتسود المعرفة والعقول

عندها سأسترجع لغتي

وسأقرأ ما بين السطور

و في اليوم التالي، أتى علي صباحاً إلى منزل جدتي ومعه كالعادة الكعك الساخن وأظن أنني رأيت شيئاً آخراً في يده ولكنني لم أتسائل عنه، ظننت أنه شيء يخصه وحده. وبعد تناول الفطور قام علي بخطوة غير متوقعة وقال لأبي "عمي، أعلم أن الوقت مبكر جداً لهذا العرض، ولكنني لم أعد أستطيع العيش بدون جوليا". وكانت هذه المرة الأولى التي أشعر بهذا الخجل الكبير حتى إنه إحمر وجهي وكادت عيوني لمس الأرض. قام أبي بإستجوابي عن الأمر "جوليا، هل تقبلين الزواج بعلي؟"فرفعت عيناي لأرى أمي والدموع تجرف عيناها من شدة الفرحة والسعادة. وأجبت أبي بالقبول. و تزوجنا أنا وعلي في العام 2000، وانجبنا بنت اسمها ياسمين وولد اسمه جود. وفي هذا العام، كانت أوضاع لبنان قد تحسنت وعاد الأمن والأمان وتوقفت الحرب، وقررنا أن نسترجع روتينونا الطفولي والذهاب مع أولادنا كل يوم أحد إلى حديقة رأس بيروت بعدما قامت البلدية ترميمها لربما تكون دنيتهم صغيرة أيضاً، ويكون نصيبهم في الحديقة كما هو حالنا أنا وعلي.